الخونة

لو أن أحداث هذه الرواية التى نحن بصدد سرد وقائعها فى السطور القادمة ظهرت فى فيلم سينمائى لوصف جمهور المشاهدين أحداثها على أنها محض أفتراء ، وأنها لا تزيد عن كونها خيالاً جامحًا ، لكاتب مفرط فى الأحلام ، وتخيل معى فيلمًا أبطاله خمسة من الرجال الأذكياء صغار السن حاصلين على شهادات جامعية من أعرق الجامعات الإنجليزية ، اتفقوا جميعًا على إخفاء تعاطفهم مع الشيوعية العالمية ، وعملوا كجواسيس غارقين حتى الثمالة ، فى حب الشهوات والإفراط فى شرب الخمور ، وبالرغم من هذه الحماقات استطاع واحد منهم أن يتسلق سلم الوظائف العليا ، حتى وصل إلى منصب مستشار للملكة ، وفاز بلقب فارس ، ولا شك أن فيلمًا تتقمص البطولة فيه مجموعة من أمثال هؤلاء الأفاقين لابد وأن يدخل فى مصاف الأفلام الخرافية ، التى لا يقبلها عقل المشاهد بسهولة ، ولكننا نؤكد أن هذه الوقائع حدثت بالفعل « على أرض الواقع » ، وأنها أحداث حقيقية ، وليست مجرد خيالات لكاتب مغرق فى الأوهام ، ولنبدأ بذكر أبطال الرواية .

« أنتونى بلنت » ، « كيم فيلبى » ، « دونالد ماكملان » ، « جوى بيرجيس » ، « جون كانرنكروس » ، وكلهم تلقوا تعليمهم فى الفترة ما بين ١٩٢٦م – ١٩٣٣م فى جامعة كمبردج ، كلهم مؤمنون بالفكر الشيوعى ، ومتأثرون حتى النخاع بالتعاليم الماركسية التى تلقوها على يد أستاذ الاقتصاد الماركسى « موريس دوب » (اشتهر منزله باسم الدار الحمراء) وتم تجنيدهم كجواسيس لحساب الاتحاد السوفيتى ، تحت وهم أنهم بمساعدة هذه التعاليم الماركسية يمكنهم تحقيق حلم البشرية فى السلام .

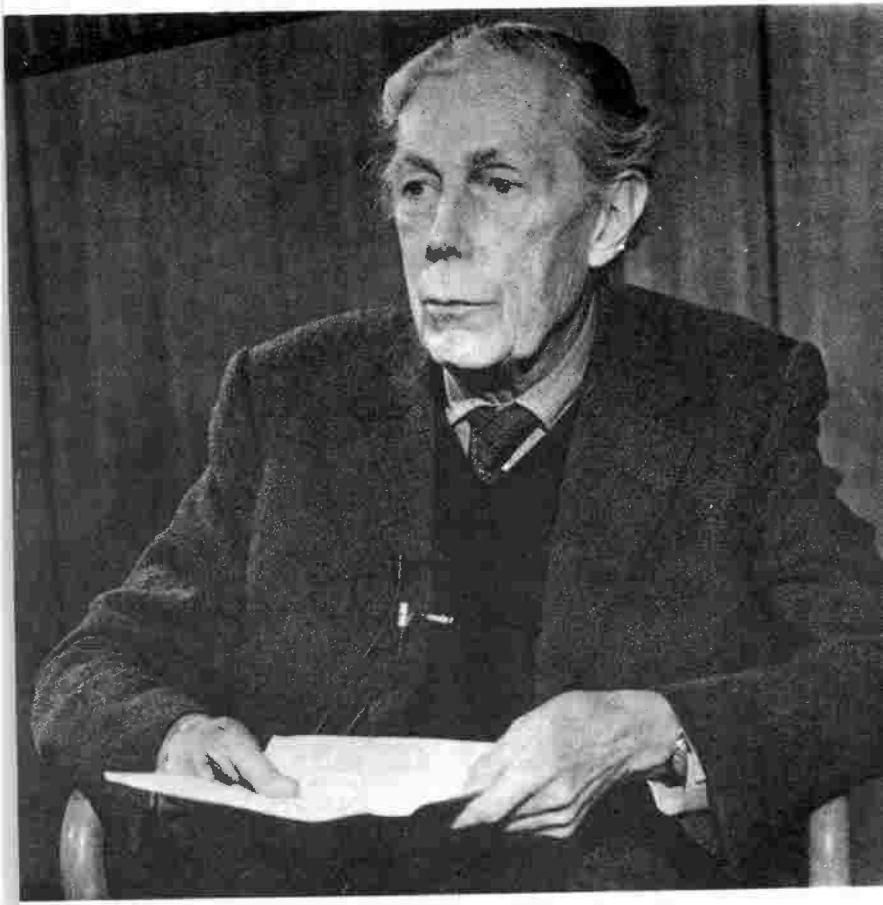

أنتونى بلنت

مزودة بالمهارة والمثالية وشرف الانضمام للمجموعة المميزة من طبقات المجتمع الإنجليزى من خريجى جامعة كمبردج ، استطاعت هذه المجموعة صغيرة السن التسلل إلى الوظائف الحكومية ، والفوز بمراكز هامة فى الجهاز الحكومى ، كانت العقبة الوحيدة نحو الحصول على هذه المراكز الهامة ما عرف عنهم مسبقًا من ميولهم الشيوعية ، مما أثار الشبهات حولهم وجاء الحل بسهولة مطلقة ، اكتفى المسئولون بالاقتناع بحسن نواياهم بمجرد إعلانهم وتصريحهم بالتخلى عن هذه الميول ، وبعدها انفتحت الأبواب المغلقة أمامهم بسهولة للفوز بالوظيفة المرموقة .

« أنتونى بلنت » حاصل على شهادة جامعية فى اللغات الحديثة خريج دفعة عام ١٩٣٢م ، ولكنه فضل العمل كمدرس بجامعة كمبردج ، بينما ظل محافظًا على ممارسة هوايته المحببة بدراسة تاريخ الفن ، قام « بيرجيس » بتجنيده كجاسوس ، وتكفل « بلنت » بمهمة تجنيد « ماكملان » ، « كارنكروس » كعملاء جدد ، كما التحق بـ M15 خلال الحرب العالمية الثانية ومن خلال وظيفته الجديدة استطاع « بلنت » تسريب مجموعة هائلة من المعلومات إلى الروس ، هجر العمل السرى M15 ليعمل فى القصر الملكى ، ولكنه استمر فى تقديم المعلومات إلى عملائه ، ومن الأمور المضحكة المبكية أن هذا الركن الأساسى فى عمليات التجسس ضد بريطانيا حصل على لقب فارس فى عام ١٩٥٦م .

كيم فيلبى

كيم فيلبى حاصل على شهادة فى الاقتصاد ولكنه التحق بمنظمة للعمل السرى فى فينا ، تقوم بمساعدة الشيوعيين فى الهروب من طغيان الفاشية ، تم تجنيده كجاسوس ، وعاد إلى لندن ١٩٣٤م ، وبعدها بعامين بدأ العمل كصحفى يكتب مذكراته عن الحرب المدنية الدائرة فى أسبانيا ، ومنذ هذه اللحظة زعم أنه صاحب فكر يمينى ، وهكذا انزلق إلى مخاطر الحياة

المزدوجة وفى ١٩٤٠م التحق M15 بناء على توصية من كولونيل « فالنتين فيفيان » نائب رئيس M16 الذى تعرف على والد « فيلبى » أثناء الخدمة المدنية فى الهند ، أمد « فيلبى » السوفيت بخطط الإنجليز وأفكارهم نحو أوربا عقب انتصار الحلفاء ، وانضم بعدها إلى M16 وهو جهاز الجاسوسية المضادة بالقسم الأيبيرى (خاص بأسبانيا – البرتغال) ومن خلال هذه الوظيفة استطاع التغلغل فى صفوف الجهاز الإنجليزى والتعرف على إمكانية حدوث هدنة مع الألمان ، وهكذا انغمس فى العمل لحساب السوفيت ، وأثناء هذه الفترة تزوج من زوجته الثانية ، ولكنه استمر فى التورط فى العديد من المغامرات العاطفية والإفراط فى احتساء الخمور .

ولاحتمال ترشيحه لرئاسة M16 عين رئيسًا لفرع M26 فى إستنبول عام ١٩٤٧م ، وانتقل بعدها بعامين إلى واشنطن ، ومن ضمن مسئوليات وظيفته الارتباط بوكالة الاستخبارات الأمريكية ، ومكتب المباحث الاتحادى ، واعتقد الأمريكيون أن تعينه فى هذا المنصب ، تم ليكون عينًا للإنجليز ولكنه كان مخادعًا ماهرًا ، حتى إنه عقد مؤتمرًا صحفيًا فى ١٩٥٥م لانكار شبهة التجسس ، وفى العام التالى انتقل إلى بيروت ليشغل فى هذه المرة وظيفة صحفى ومن هنا استغل الفرصة السانحة ، كى يهرب إلى رؤسائه الروس بمجرد سماعة بأنباء اكتشاف سره الرهيب ، وأن اللعبة نفسها قد قاربت على الانتهاء وأثبتت الأيام فيما بعد أنه كان على علاقة غرامية مع ميلندا زوجة « ماكلان » ، توفى « فيلبى » فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٨م ، وتم دفنه هناك فى مراسم احتفال محاطة بالشرف والتقدير .

« دونالد ماكملان وسيم ، طويل القامة ، ذو ملامح ودوده ، بدأ أعمال التجسس بمجرد التحاقه إلى وزارة الخارجية (القسم الألمانى) فى عام ١٩٣٥م .

دونالد ماكملان

جوى بيرجس

ميلندا زوجة دونالد ماكملان

وفى عام ١٩٣٨م عين عضوًا ديبلوماسيًّا بالسفارة الإنجليزية بباريس ، وهناك تزوج بامرأة أمريكية مطلقة تدعى « ميلندا مارلينج » ، ودبر الزوجان بمجرد زواجهما أمر الهروب من فرنسا قبل اجتياح الألمان لفرنسا ، وفى ١٩٤٤م عين السكرتير الأول للسفارة الإنجليزية فى واشنطن ، وهى وظيفة مرموقة فى السلك الديبلوماسى ، وهى أيضا تعتبر الحلم المثالى لأى شخص يعمل فى مجال الجاسوسية ، ومن خلال هذه الوظيفة المرموقة استطاع تسريب المعلومات التى ساعدت الروس فى إنتاج القنبلة الذرية .

وعلى أى حال فإن « دونالد ماكملان » ، كان رجلاً ضعيفًا لا يستطيع مقاومة إغراء الخمور ، الأمر الذى أوقعه فى مجموعة من المآزق ، التى كادت تكشف قناعة المزيف فى كثير من المرات ، وعقب ترقيته إلى وظيفة مرموقة فى القاهرة عاد إلى إنجلترا ، ليتلقى علاجًا من أطباء متخصصين فى الطب العقلى خاصة بعد أن ساءت سمعته ، وبعد تدهور حالته الصحية وإدمانه الخمور وربما تهربا من الضغط النفسى شديد الوطأة الذى كان يعانى منه بسبب تورطه فى الحياة المزدوجة ، وبمجرد إحساسة أنه على وشك التعرض للاستجواب بتهمة التجسس هرب إلى موسكو مع « جوى بيرجيس » عام ١٩٥١م .

« جوى بيرجيس » ، اكتسب شهرة مدوية كمدمن خطير ، وكمؤيد صريح للشيوعية أثناء فترة دراسته التاريخ فى جامعة كمبردج ، أصيب بالنيورا ستينيا (النهك العصبى) قبل دخوله للامتحان بالسنة النهائية ومنح درجة علمية متوسطة ، زار الاتحاد السوفيتى ١٩٣٤م ، وعاد من هناك ، وهو يعلن أنه هجر الماركسية وأضاف أنه من الصعب أن تكون مدمنًا للخمور فى موسكو ، كان ذلك جزءًا من مؤامرة دبرها مع « دونالد » لإخفاء ميولهم السابقة ، وأسس لنفسه مزيجًا من العمل السياسى والاتصالات الاجتماعية مع الطبقة الراقية ، وبذا انفتحت أمامه أبواب واسعة للحصول على سيل من المعلومات المفيدة عن

الحكومات البريطانية – والفرنسية والألمانية فى ١٩٣٨م ، التحق بالعمل فى مكتب الحزب كخبير دعاية فى قسم وثيق الصلة M16 ولكنه طرد من الخدمة فى عام ١٩٤٠م . وبعد ٦ سنوات عاد إلى العمل فى وزارة الخارجية فى مركز مرموق يتعامل مع البوليس فيما وراء البحار مما أتاح له الفرصة المناسبة للحصول على كمية غير محدوده من الأسرار ، تلقى تعنيفًا رسميًّا بسبب مغامراته ، وإدمانه للمخدرات وتنقل بعدها فى عدة وظائف قبل إيفاده إلى واشنطن ، ومن هناك واصل إرسال كافة التفاصيل التى حصل عليها إلى الروس ، وفى واشنطن لم يواجه أى مشاكل فى البحث عن مكان للإقامة حيث استقر به المقام مع فيلبى ليعيش حياة مشوشة فى فوضى شاملة ، ارتكب العديد من مخالفات المرور ، وعاد إلى انجلترا وهناك أدرك أن أعماله التجسسية على وشك الانفضاح ، وقرر فى الحال الهروب إلى موسكو بصحبة « دونالد » .

« جون كارنكروس » ، فى ١٩٤٢م التحق للعمل فى أهم مؤسسات الحزب ، أكثرها حساسية وأهمية ، حيث عمل فى مركز حل الشفرات ، وقام بتحرير الرسائل الألمانية ، التى يلتقطها بحكم عمله إلى السوفيت عن طريق بلنت ، ثم ترقى فى الوظيفة ليعمل فى المركز الرئيسى لحل الشفرات وتخصص فى الاستخبارات وحل شفرة الرسائل الصادرة من الألمان ثم من اليوغوسلاف .

أسفر كشف الفضائح الخاصة بالجواسيس الخمسة خريجى جامعة كمبردج عن فضيحة أخرى لجهازى M16, M15 الإنجليزين ذلك لأن هتك أسرار هذه الشبكة تم عن طريق موظف أمريكي الذى كشف عن اختراق أسرار الجهاز الإنجليزى الذى يضم بين جوانحه أشخاصًا يعملون فى الظلام ، ومارس هذا الموظف الأمريكى ضغوطًا على الحلفاء لبذل مجهودات جادة للكشف عن الخونة ، تلقى « بيرجس » و « ماكملان » تحذيرًا سريًّا دفعهم للإسراع بالفرار إلى أسيادهم فى روسيا فى عام ١٩٥١م ، واستغرق الأمر أربع سنوات ، اعترفت بعدها وزارة الخارجية الإنجليزية بأن « بيرجس »

و » ماكملان » كانا يعملان لحساب الاتحاد السوفيتى ، وفى ١٩٥٦م عقد الجاسوسان مؤتمرًا صحفيًا فى موسكو لتبرئة أنفسهما من الاتهام الخطير .

حدست الصحافة بوجود رجل ثالث ، وركزت الضوء على « فيلبى » الأمر الذى أثار « دونالد ماكملان » وأعلن براءة « فيلبى » ولكن أمره اتفضح عن طريق KGB التى قدمت دلائل الاتهام ، ولكن « فيلبى » نجح فى الاختفاء والهروب إلى موسكو .

فى ١٩٦٤م اعترف بلنت بجرمه ، ومنح حصانة من توجيه الاتهام إليه فى مقابل الاعتراف عن آخرين ممن تورطوا فى أعمال التجسس ، وبالرغم من ذلك عين فى وظيفة بالقصر الملكى ، أحيطت الملكة علمًا بوجود خائن بين صفوف مستشاريها . ووجهت إليها النصيحة بعدم محاولة تحريك المواجع ، وفى ١٩٧٩م أعلن القصر فى استحياء تجريد « بلنت » من لقب فارس ومات فى عام ١٩٨٣م .

أثير العديد من التخمينات عن وجود (رجل خامس) وأشارت أصابع الاتهام بالجاسوسية إلى « روجر هوليس » الذى كان يتربع على قمة M15 وذلك قبل اكتشاف هوية « جون كارتكروس » فى عام ١٩٩٠م .

كشفت الأحداث السابقة عن ضرورة إجراء عمليات غربلة لمجموع العاملين فى العمل السرى ، وكذلك عن وجود ثغرات كبيرة فى اختيار العناصر المناسبة فى جهاز العمل السرى ، ووجود عجز وقصور فى تقصى آثار الخونة بين الصفوف ، وبدت هذه الحقائق كلغز محير يصعب تفهمه ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ما أثير حول شخصية قائد هذه المجموعة « جوى بيرجيس » الذى اشتهر عنه بأنه شخصية غير مستقرة ، وما عرف عنه بميوله الشيوعية خاصة فى أيام الدراسة .

ولا شك أن قصة كهذه تدفعك إلى التساؤل عن وجود شخص سادس أو سابع أو ثامن ضمن هذه المجموعة من الخونة .